تفسير سورة الاعراف الحلقة 54

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(96)**

مواصلة الحديث حول الآية والإجابة على أشكال الواقع الخارجي ومدلول الآية، لأن كل شخص يقرأ الآية يعني طبيعيًا أن يخطر بباله: ما هو مدلول الآية وما هو الواقع الذي يعيشه الناس؟

أولًا) الواقع المعاش - الواقع الخارجي: ما هو الواقع الخارجي الذي يعيشه العالم؟

1) الواقع أن العالم في حركة تدميرية، فالفساد في كل شيء منتشر على جميع أصعدة الفساد، سواء كان فسادًا بين الناس، سواء كان فسادًا في الإدارات، سواء كان فسادًا في الحكومات في الدول المستعمرة، وغير ذلك من الفساد في كل شيء.

2) تجارة البشر في العالم المتحضر، العالم الذي يرمق وينادي أنه متقدم، تجد تجارة البشر من الأمور الواضحة المنتشرة في استغلال الضعفاء والفقراء والمحتاجين.

3) استعمار الشعوب عنوة واستغلالها، كم من الدول المستعمرة والمستغلة، آلاف ومئات الشركات الإسرائيلية توجد في أفريقيا تنقب عن المعادن وتستخرج المعادن وتبقى فضلاتها تدمر تلك الشعوب، هذا كله فساد.

4) تأثر المناخ وانتشار الأمراض الفتاكة.

5) الفيضانات والسيول وغير ذلك من الواقعات في العالم والتنبؤات بمناخ وفيضانات وسيول مدمرة، وارتفاع نسبة المياه في البحار والمحيطات، وغير ذلك، كل ذلك جراء الفساد الذي لا يمكن أن ينكر وجوده أحد. هذا كله موجود في العالم بصورة عامة، لا نقول خاص بهذه المنطقة أو بهذه المنطقة، النظرة العامة للعالم تشهد وجود الفساد على جميع المستويات، ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس.

ثانيًا) هل الإيمان - الذي تحدثنا عنه في الأمس - الذي هو السبب للبركات يجب أن يكون للنوع الإنساني أم للقرية أو المدينة؟

بمعنى هل إذا تحقق الإيمان للقرية أو المدينة يكفي لتعيش القرية أو المدينة رفاهية وصلاح وتنزل عليها البركات، أم لا بد أن يؤمن أفراد النوع الإنساني؟

الجواب:

1) ما ذكرنا بالأمس وما استظهره بعض المفسرين أن الإيمان النوع شرط لذلك الرفاه، فلا يكفي أن يكون هناك إيمان في هذه القرية فتنزل هذه القرية تنزل عليها البركات مجموعًا لأنها آمنت، ينزل عليها البركات ويعم الخير. وأن ما يقول المفسرون وأن الشيخ ناصر مكارم الشيرازي وغيره على أنه إذا عم الإيمان والتقوى في العالم.

2) هناك استظهار آخر وهو أن إيمان القرية أو المدينة، القرية المنطقة المنفصلة عن غيرها، إذا كانت هي بنفسها مؤمنة، ينعم الله سبحانه وتعالى عليها ويغدق عليها. هل هناك شاهد لهذا الاستظهار في القرآن الكريم أم لا؟

نعم، يوجد شاهد لهذا الاستظهار كما في قوله تعالى عن يونس: "فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين" لأنهم آمنوا، الله سبحانه وتعالى رفع عنهم العذاب ومتعهم إلى حين، ويقول عنهم أيضًا "وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين" يعني يمكن أن تكون المنطقة إذا كانت بلد مثلاً أو دولة كلها مؤمنة جميع أفرادها بصورتها العامة إيمان وتقوى الله سبحانه وتعالى يفتح عليها الخير والبركات التي ذكرت في الآية السابقة.

ثالثًا) أشكال الإيمان والواقع؛ هنا الاشكال عن الإيمان والواقع والاشكال بديهي أو مبالغ فيه وهو الاشكال أو المستشكل يقول هكذا إنما تتحدث الآية عن سنة الإلهية عامة وليست خاصة بزمان ومكان. صحيح هذا الكلام؟ نقول صحيح، الآية تتحدث عن أنه متى ما آمن الناس عاشوا الرفاهية وعاشوا الرخاء، فهي لا تتحدث عن زمان محدد ولا عن منطقة محددة. يقول واقع الإيمان والرفاهية، ننظر إلى الواقع وأين واقع الإيمان الموجود، الدول المؤمنة والمسلمة والرفاهية وأين واقع الكفر والعقوبة. لماذا تعيش الدول الكافرة رفاهية بينما تعيش الدول المؤمنة الحرمان والفقر؟ خذ بالعكس، نرى أن الدول الكبيرة والمستعمرة الكافرة هي التي تعيش الرفاهية، أما الدول المؤمنة تعيش الفقر.

فما هو جواب هذا الاشكال؟

الجواب: للجواب على هذا الاشكال نحتاج أن نلاحظ عدة نقاط:

1) إن تصور الرفاهية بوجود المال وربط السعادة بالمال تصور خاطئ، عندما تقول عندهم مال يعني هم سعداء، يعني هم يعيشون أفضل الشعوب والراحة التامة هذا تصور خاطئ لأنه كم أناس عندهم من النعم المادية ولكنهم يعيشون الحرمان الروحي والنفسي والمعاناة وهذه من الأمور الواضحة ولكن تحتاج إلى تنبه.

2) لو أردنا أن نعرف واقع تلك الشعوب وسعادتها يجب أن نتعمق إلى أبعد من الظاهر ننظر إلى أبعد من ظاهر ما نراه عن تلك الشعوب لا تنظر للشارع وتنظر إلى أموال فقط، انظر للواقع الذي يعيشونه، كم تعاني تلك الشعوب من تفكك العلاقات الاجتماعية وتفتقد الحنان والمحبة الأسرية، علاقات اجتماعية متفككة أسرية متفككة يطمح ويحلم بها الناس هم يتكلمون أننا نحلم أن نكون الأسرة في البيت يربي الرجل والأم تربي ابنتها وتكبر تصل الثامنة عشر تخرج البنت لا تعطي أباها اعتبار ولا أمها اعتبار فالأم متعلق بها وهي تذهب وتتركها يعني ارتباط أسري ليس له وجود، كم توجد من حالات التعدي والاغتصاب حتى تبلغ نسبة خيالية ذكرنا سابقا نسب التعدي والاعتداء والاغتصاب الذي يصل حتى بعضه للقتل ونسب التحرش بصورة عامة تفوق 50/100 يعني إذا جمعت فتيات تقول من كن تعرضت للتحرش على أقل تقدير نصفهن تقول تعرضنا، فأي سعادة هذه.

3) الأمن في تلك الدول مفروض بالقوة وتحت الحراسة والناس في أي فرصة يفترس بعضهم بعضًا، تنقطع الكهرباء تجد الاعتداءات والسرقات خلل يكون في النظام أي سعادة وأي ترابط في هذا المجتمع.

4) أما الجانب المادي والتنعم بالنعم المادية فهو إنما هو تنعم عصابة، عندهم تنعم عندهم نعم في الواقع لو نظرت إليهم المسيطرون طبعاً لا نتكلم عن الشعوب فكل شعب وفرد فرد من الشعب ولكن المتسلطون المستعمرون عصابة يستعمرون الدول ويأخذون خيراتها فيتنعمون بشيء منها.

5) التنعم المادي مع وجوده كما قلنا ليس هو

المقياس للسعادة وليس هو أيضًا دليل على رضى الله سبحانه وتعالى، هذه طبعاً ملاحظة إنه ليس كل ما وجدت نعم في مجتمع يعني الله راضي عنه وأنه في سعادة كما في قوله تعالى الذي ذكرنا في الآيات السابقة: "ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون" هؤلاء بدلهم الله كانوا في شدة فسقوا وفسدوا فالله سبحانه وتعالى بدل الشدة بالرخاء وجعلهم في رخاء حتى يأخذهم بالعذاب فالرخاء ليس علامة على رضى الله سبحانه وتعالى؛ ولماذا قد يعطى الكافر فرصة من الرفاهية؟

الجواب:

إنَّ الدنيا ليست محلاً للثواب كما في الأحاديث، "أن الدنيا ليست محلًّا للثواب ولا هي محلًّا للعقوبة. العقوبة مكان آخر والثواب مكان آخر، الدنيا قنطرة واجتياز ومزرعة يُزرَع فيها الإنسان ليحصد بعد ذلك." إذًا، هذا بالنسبة للرفاهية في الدول الكافرة، نقول وإن وُجِدت فهي ليست دليلًا على السعادة، بل توجد في جانب والشقاوة في جوانب كثيرة موجودة.

رابعًا) أما الجانب الآخر واختتم الكلام وهو الإشكال الذي فيه غلط، وهو الادعاء بالإيمان والتقوى وطلب الرفاهية؛ المستشكل الذي يقول المجتمع مؤمن وأين الإيمان والتعاسة التي يعيشها المجتمع وليست رفاهية، نقول في ذلك:

1) هل المقصود بالإيمان في الآية الإيمان الظاهري فقط؟ الجواب: لا، وإنما الإيمان الحقيقي. الآية تتحدث عن إيمان حقيقي وتقوى حقيقية.

2) واقعنا يشهد أنَّ أشكالنا ليست واقعية، وذلك بالنظر الجاد إليه، فنسأل أنفسنا: أين نحن من تعاليم الإسلام حتى نعرف إنَّنا مؤمنون أم لا؟ كل شخص يسأل نفسه ويسأل واقعه: أين نحن من تعاليم الإسلام التي نتغنى بها؟ نفتخر بالإسلام ونقول ننتمي للإسلام في كل مكان، في جميع الدول نتغنى بالإسلام وتعاليمه. نقول: نحب الصالحين ولسنا منهم. نعيش الفساد ونقول: نحن ننتمي لعلي بن أبي طالب، نحن ننتمي لرسول الله. نحن نفتخر، ولكن واقعنا ليس كذلك. أين نحن من قوله تعالى: "وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ"؟ أين هذه الآية التي هي قرآن وتعاليم الإسلام؟ وأين واقعنا؟ نزاع نتنازع أم لا؟ حرب وتدمير فيما بيننا وخلافات مستمرة. أين نحن من الدعوة للتضامن والتكاتف؟ أليس رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"؟ أين نحن من آلام ومعاناة الشعوب؟ أين نحن والتقوى الحقيقية التي نتصورها في الآية: "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا"؟

تتحدث عن إيمان وتقوى. أين نحن من هذه التقوى؟ فهل يوجد عندنا تقوى؟ أم يوجد في المجتمع يغش؟ أم يوجد كذب؟ أم توجد غيبة؟ أم يوجد اختلاس؟ أم يوجد تعدي؟ أم يوجد تجاوز؟

إذا كانت هذه الأمور موجودة، فلا نقول إنَّنا مؤمنون، لذلك لا توجد بركة في أفعالنا ولا في أموالنا.

والحمد لله رب العالمين.